جدلية الشرق* والغرب
أو الهجنة والمشروع الكولونيالي
(إدوارد سعيد نموذجا)

أ.شمس الدين شرفي
قسم الأدب العربي - كلية الآداب واللغات
جامعة الشهيد عباس لغرور - خنشلة

ملخص :

تهدف هذه الدراسة إلى كشف المنطلقات الإنسانية والأسس المعرفية والمرتكزات المنهجية التي أنبنى عليها الفكر السعيدي في نقده للاستشراق وتعريته لمنظومة الأحكام الاستعلائية والمصادرات العرقية والعنصرية التي قام عليها خطاب الغرب عن المسلمين والعرب.

كما تتقصى في الآن ذاته أوجه نقد إدوارد سعيد للخطاب الاستشراقي بوصفه أداة من أدوات الاستدمار الغربي ووسيلة من وسائل فرض سيطرته على الوطن العربي والبلاد الإسلامية ، من خلال صناعة (شرق) مصطنع وغير حقيقي في أبنية المتخيل الأدبية و الفنية والفكرية و الأنثرولوجية، (شرق) يتزيا في الذهن الغربي متوحشا وبدائيا وغريزيا ومرتعا خصبا للمتعة واللذة في ظل عالم الحريم و الجواري ، (شرق) يصير من المبرر جدا والحالة هذه أن يستباح ويستعمر وتنتهك أرضه وتستغل خيراته وأن يتعرض لأبشع أنواع الإبادة العرقية والمحو الثقافي.

لأجل ما سبق تلقي هذه القراءة الضوء على سيرة إدوارد سعيد (خارج المكان) بوصفها خطابا مابعد كولونيالي يستبطن نقدا ساخرا لأوضاع الهيمنة والسادية النرجسية التي فرضتها بريطانيا على كل من مصر و فلسطين.

Résumé :

Cette étude ce focalise sur l'autobiographie du critique et philosophe palestinien Edward Said (out of place) ; qu'a été sujet de plusieurs approches , et qui révèle d'importantes informations sur les perspectives humanistes , épistémologiques et à la fois critiques ; sur lesquelles Edward Said a fondé sa théorie post colonial , en

s'appuyant sur la critique du discours orientaliste .

le fait que l'orient à été toujours un objet d'études , d'orgasme , de fantasmes et d'imaginations érotiques , avait toujours eu un rapport direct avec la volonté occidentale de domination . et suite à cette volonté un discours orientaliste s'émerge comme pour faire légaliser la domination coloniale en prétendant l'infériorité de l'orient .

تمهيد

منذ صدور كتابه عن الاستشراق في سنة 1978 برز إدوارد سعيد مفكرا وناقدا وقطبا من أبرز أقطاب خطاب ما بعد الكولونيالية الذي تمظهر كاتجاه نقدي صارم، قام على نقض المقولات الغربية وهدم الصور النمطية، التي تم تحنيط الشرق بوساطتها . فقد ذهبت الدراسات الاثنوغرافية و الأنثروبولوجية و الفنون والكتابات الأدبية الغربية إلى تحويل الشرق إلى مواد فلكلورية ومتحفية ، تقوم في مجموعها على الغرائبية والعجائبية والإدهاش.

و قد حدد إدوارد سعيد موقفه من هذه الصور النمطية، التي قامت عليها أسطورة الشرق في المتخيل الغربي من خلال الإشارة إلى دوره كمثقف، في مقدمة كتابه " تمثيلات المثقف"، بقوله : " من المهام المنوطة بالمثقف أو المفكر أن يحاول تحطيم قوالب الأنماط الثابتة والتعميمات الاختزالية التي تفرض قيودا شديدة على الفكر الإنساني وعلى التواصل ما بين البشر " [1].

لا عجب إذا أن ينهض المشروع الفكري لإدوارد سعيد في مجمله على ما يمكن تسميته (المقاومة الثقافية) لجميع أشكال الهيمنة الفكرية الغربية التي تقوم على تشويه الآخر غير الغربي بوصفه بدائيا ساذجا، وأن يسعى في غير مرة أو مناسبة إلى مناهضة أشكال التمركز الغربي على ذاته في خطابه عن الأمم الأخرى. وعلى هذا فقد صارت مراجعة إدوارد سعيد للتصور الغربي عن الشعوب والأمم غير الغربية مراجعة نقدية لأنماط تشكل الخطاب المعرفي الغربي، بوصفه إعادة إنتاج للآخر بما يتوافق وإنكار خصوصيته، وعدم إدراك غيريته إدراكا موضوعيا محايدا ؛ فثمة . كما يؤكد درتسكي Dretske عوائق معرفية (Epistemological barriers) تحول دون معرفة ذوات أغيارنا ليست أصعب من تلك التي تحول دون معرفة سائر الأشياء . كما إن هناك مفهومان يجب التمييز بينهما : ((رؤية كذا)) و ((ورؤية أنه كذا)) (Seeing x and seeing that it is x) .[2]

ومن هذا المنطلق سيكون علينا أولا أن نتقصى السيرة الذاتية والفكرية لإدوارد سعيد بمتابعة واستعراض أعماله وكتاباته بصورة عامة ، ومن ثم التركيز بوجه خاص على فحص واستكناه إسهاماته التأسيسية الرائدة في مجال نظرية (ما بعد الاستدمار) أو خطاب ما بعد الكولونيالية ، أو الدراسات الثقافية كما يحلو للبعض تسميتها.

إدوارد سعيد الإنسان والمفكر بين وعي الهوية و وعي الكولونيالية :

ربما عد كل من كتابي: " الاستشراق " و " الثقافة والامبريالية " عملين مركزيين في منظومة إدوراد سعيد الفكرية ، يشهد على هذا ما لقياه من رواج ومن ترجمات إلى أغلب لغات العالم تقريبا، لكن أعماله الأخرى قد غدت من القيمة والأهمية الفكرية و المنهجية و الابستيمولوجية حدا لا يمكن معه إغفال دورها الكبير في إضاءة سيرته الفكرية ، وإماطة اللثام عن مبانيها المعرفية والإيديولوجية .

ولم يعد اليوم خافيا ما لسيرة إدوارد سعيد الذاتية من قيمة علمية وأكاديمية في كشف أسرار وعرى هذه العلاقة المستعصية على الانفصام بين وعي الهوية ووعي الكولونيالية في الفكر السعيدي.

والناظر في كتاب إدوارد سعيد : " خارج المكان" بوصفه سيرة ذاتية لاشك سينكشف له هذا التآزر القوي بين الوعيين، وهو تآزر يصل في كثير من الأحيان إلى حد الإغراق في سخرية حادة _ لكن مهذبة _ من الذات والآخر على السواء ، سخرية تنبني على هذا الإحساس المرهف بحدة المفارقات الاجتماعية والثقافية والسياسية التي طالت حياة إدوارد سعيد _ صبيا ويافعا وكهلا _ وأناخت بظلالها على تكوينه الفكري والروحي والثقافي، وقد يكون من نافلة القول ، أن نذكر أن هذه المفارقات هي التي شكلت فيما بعد الأسس الأولى لموقفه النقدي الصارم من المؤسسة الاستشراقية الغربية بوصفها أداة في من أدوات الهيمنة ووسيلة من وسائل الإخضاع والإرغام المستعملة من قبل الاستدمار الغربي لتبرير قهره للآخر المختلف عنه عرقيا وثقافيا وإيديولوجيا و تاريخيا وحضاريا. بل بوصفها . أي المؤسسة الاستشراقية . عصا سحرية تهيء للغرب مدخلا مكريا (أي قائما على المكر) ممتازا للمخاتلة والخداع ، وتمرير أطروحات الغدر الفكري القائمة على الاستلاب والإقصاء والمحو الثقافي، والتعالي العرقي.

ومنذ السطور الأولى في كتاب " خارج المكان" تطالع القارئ هذه الروح السجالية في طريقة عرضه لماضيه بوجه تتكشف من خلاله نقمة خفية على الوقائع والأحداث وربما الأشخاص كذلك؛ إذ رغم ما تزخر به هذه السيرة من حقائق تاريخية واجتماعية و ثقافية إلا أن الكاتب ينأى بها عن الطابع التسجيلي الصرف الذي قد يغلب على كثير من الكتابات السيرية.

ومنذ الصفحات الأولى في هذه السيرة يكتشف القارئ ازورارا ملحا . من الكاتب . عن

وثوقية الاستعادة الآلية للوقائع والأحداث. كما يتجلى من البداية هذا النفور الحاد من مجرد تحويل الماضي إلى مادة متحفية يتجلى من خلالها إدوارد سعيد بوصفة كينونة أوشكت على الانصرام إلى حيز الفناء والعدم.

إن السيرة السعيدية تكشف أسئلة حرجة جدا عن الوجود والعدم، كما تبسط مراجعات عميقة الغور لإشكالية الهوية والغيرية والمطابقة والاختلاف ، وثنائية الأنا و الآخر .وكثيرا ما يتشظى وعي إدوارد سعيد السيري إلى وعيين يتقاطبان السيرة كلها في سجال طباقي حاد، بين وعي بهويته كفلسطيني عربي ، وبين وعيه كونه هجينا ممتازا من هجناء المشروع الكولونيالي الغربي ، ويصل هذا التشظي إلى ذروته عندما يتقصى أطوار نشأته الأولى من الطفولة إلى المراهقة ، ثم النضج مستعرضا من خلالها تدرجه الدراسي عبر مؤسسات أقل ما يمكن أن توصف به هو طابعها الكولونيالي المحض.

وبادئ ذي بدء سيكون علينا أن نستعرض هذه السيرة في مستويين ، الأول هو المستوى السطحي القائم على تتبع سير الأحداث وفق تعاقبها الزمني ، والآخر هو المستوى العميق بوصفة انعكاسا لمرحلة متأخرة من الوعي النقدي القائم على استعادة هذه الأحداث والتجارب الشخصية من زاوية معرفية، ثم تصنيفها كمعالم تحول أساسية يسفر فحص أثرها في حياة المؤلف عن اعتبارها نقاط ارتكاز ذاتية انبني عليها موقف الكاتب من الاستدمار و الكولونيالية.

خارج المكان قراءة كرونولوجية سريعة [3] :

ولد إدوارد سعيد في القدس الغربية في الأول من تشرين الثاني / نوفمبر سنة 1935. لعائلة مسيحية مكونة من أب فلسطيني يحمل الجنسية الأمريكية، وأم فلسطينية تحصلت في طور متأخر من حياتها على الجنسية اللبنانية. وكان أبواه يقيمان بشكل متقطع بين فلسطين حينا ، و مصر أحيانا ، فاكتنفت نشأته . طفلا و يافعا . ازدواجية العيش بين حي الطالبية بالقدس الغربية طورا ، وبين حي الزمالك بالقاهرة حينا.

بدأ دراسته في مدرسة الجزيرة الإعدادية منذ 1941 إلى غاية 1946 ، ثم انتقل إلى مدرسة القاهرة للأطفال الأمريكيين بصفته ابن رجل أعمال أمريكي في الفترة ما بين 1946 إلى غاية 1949 ، لكن هذه المرحلة من دراسته تخللتها فترة انقطاع تم تعويضها بانتسابه إلى مدرسة سان جورج بالقدس حين عادت عائلته إلى فلسطين. وخلال عامي 1949 و 1951 انتسب إلى كلية فيكتوريا كولدج بالقاهرة منهيا بها دراسته الثانوية.

وفي عام 1953 التحق بجامعة برينستون بالولايات المتحدة وحصل منها على شهادة الليسانس في الآداب سنة 1957، ثم اختار جامعة هارفارد ليكمل بها دراسته العليا في الآداب ما بين عامي 1958 و 1963 .

شهدت علاقته بوطنه الأم فلسطين تقلبا واضطرابا كبيرين حتى غادرها في كانون الأول/ ديسمبر 1948 إذ أجلي جميع أفراد عائلته من فلسطين ، فانتقل أغلبهم إلى القاهرة، ثم لم يلبث أن غادر القاهرة نهائيا إلى الولايات المتحدة عام 1951 .

في سنة 1992 أتيح له أن يذهب مع زوجته وولديه إلى فلسطين أول زيارة له منذ خمس وأربعين سنة . وتمكن للمرة الأولى من زيارة المنزل الذي كانت تملكه عائلته في القدس الغربية، كما زار المنزل الذي نشأت فيه أمه في الناصرة.

في أيار / مايو سنة 1994 بدأ العمل على مذكراته خارج المكان ، بعد أن تم تشخيص إصابته بمرض اللوكيميا.

خارج المكان بما هو خطاب ما بعد كولونيالي :

منذ البداية ينهض وعي إدوارد سعيد السيري على إحساس حاد بالتناقض وشعور عميق بالمفارقات التي اكتنفت وجوده على مسرح الحياة. وهي مفارقات بلغت أحيانا حد الإرباك المؤرق الذي ما انفك يلازم الكاتب لسنين؛ إذ تنبني هذه السيرة على أسئلة وجودية وعرقية وثقافية وسياسية حادة جدا ، يعمل حس سعيد الساخر في كثير من الأحيان على تهذيبها وبسطها في صورة موادعة افتقدت مع التطور الفكري والعقلي لكاتب السيرة كثيرا من شراستها وألمها . كما إن المسافة الزمنية الممتدة بين الذات الناظرة والوقائع المنظورة قد شذبت أغلب الاستجابات الانفعالية ، و هذبت كثيرا من ردود الأفعال الذهنية التي يستدعيها مقام التذكر. ويمكننا استجلاء ملامح الوعي ما بعد الكولونيالي في سيرة سعيد الذاتية من خلال ما يأتي :

أولا : إشكالية الاسم بما هو انتماء ثقافي وعرقي:

يذهب بعض الدارسين إلى أن الأسماء . بوصفها لغة . ليست غير مكون يسير من النظام اللغوي بعامة، إلا أن اللغة . عبر استعمالها في سياقات سوسيولوجية . قادرة باستمرار على استثارة الإيحاءات الثقافية التي تنطوي عليها الأسماء[4].

في الفصل الأول من مذكراته يذكر إدوارد سعيد بسخرية لاذعة جدا أول محنة شخصية استقبلته وهو يخرج إلى العالم ، إذ يذكر أن خطأ قد وقع في الطريقة التي تم بها اختراعه وتركيبه في عالم أبويه وشقيقاته الأربع، فقد كان يلزمه قرابة خمسين سنة لكي يعتاد على اسم إدوارد. هكذا وبغير اختيار منه يصير عليه أن يتحمل كل الحرج الذي يسببه " هذا الاسم الانجليزي الأخرق الذي وضع كالنير على عاتق ((سعيد)) اسم العائلة العربي القح"[5].

لقد صار حتما عليه إذا أن تكون علاقته مع اسمه الشخصي علاقة متنافرة ، يتناقض فيها الدال مع مدلوله، من خلال المسافة الفجة التي تباعد ما بين القطبين الذين يشكلان اسمه الكامل، وهو تباعد يغور إلى أعماق ثقافية و سوسيولوجية و انثروبولوجية هاجعة في اللاوعي الجمعي، ولم يستطع هو تجاهلها. فالاسم الشخصي دال ثقافي ممتاز ،وعلامة انتماء عرقي واجتماعي وسياسي شديدة الخصوصية.

ولاسم العلم . كما يؤكد ليفي شراوس . ثلاث وظائف هي التعريف والتصنيف والدلالة. وإذا كان التعريف إخراجا للكائن من دائرة المجهول إلى حيز المعلوم ، فإن التصنيف قائم على

كون الاسم دالا على الهوية الجماعية، عبر تناغمه الجغرافي أو رنته الاجتماعية وخلفيته الثقافية . أما الدلالة فترتبط بالتعقيدات الرمزية التي ينشأ عنها تفسير الاسم. وما الاسم في العمق سوى دعوة للكينونة وختم يسم الوجود.[6]

ويتحدث الكاتب عن هذه المشقة التي تسبب فيها هذا التركيب الاسمي الهجين ، في معرض إشارته إلى محاولاته للتغلب على ما يلقاه من استغراب الآخرين، عند ذكر اسمه الغريب في بيئة فلسطينية عربية قحة ، قائلا : " وخلال سنوات من محاولاتي المزاوجةَ بين اسمي الإنكليزيّ المفخّم وشريكه العربيّ ، كنتُ أتجاوز ((إدوارد)) وأؤكّد على ((سعيد)) ، تبعاً للظروف ، وأحياناً أفعل العكس ، أو كنتُ أعمد إلى لفظ الاسمين معاً بسرعة فائقة بحيث يختلط الأمرُ على السامع . والأمر الوحيد الذي لم أكن أطيقه ، مع اضطراري إلى تحمله ، هو ردود الفعل المتشككة والمدمِّرة التي كنت أتلقّاها : ادوارد ؟ سعيد ؟ "[7].

إن هذا المزيج المركب من اسمين غير متجانسين على مستوى الذاكرة والهوية، مع ما يضمره من تضارب الدلالات الثقافية والإيحاءات السياسية، لمدعاة إلى قلق وجودي متصل مباشرة بمسألة الانتماء والتاريخ والوطن والمصير.

يشير جويل كاندو Joël Candu في كتابه : " الذاكرة والهوية " إلى الارتباط الوثيق بين فقدان الاسم وفقدان الذاكرة ، بل إن إبادة الهوية والذاكرة لدى السجناء في معسكرات الاعتقال تسبق تصفيتهم الجسدية ، بإزالة التسمية عن طريق إنابة رقم مناب الاسم. فالذاكرة والهوية تقيمان علاقات قوية جدا في كل حالات التسمية .واسم العلم بما هو دليل على التميز، بوصفه إحالة اجتماعية وثقافية وتاريخية، هو دائما رهان من رهانات الهوية والذاكرة.[8]

وعليه فإن الانفصام المتجسد بين شقي الاسم الشخصي .لإدوارد سعيد . يستبطن تمزقا حادا على مستوى تمثل الذات التي غالبا ما يفترض أن تكون وحدة مكتملة من جهة حضورها ألاثني والعرقي والثقافي والشخصي. ولعل هذا التمزق و الأرق الوجودي كانا أشد حدة عليه وأثقل وطأة مما يمكن أن تسببه حالات نزع الاسمية المشار إليها سابقا. بل لعلهما كانا سببين مباشرين في تلك السخرية الحادة التي استقبل بها إدوارد سعيد تهجين أبويه اسمه على هذا النحو، عندما يشير إلى تهافت تبرير أمه فيما يتعلق بتسميته إدوارد تيمنا باسم أمير بلاد الغال الذي كان اسمه لامعا في سنة 1935 ، عندما اكتشف أن لا أجداد له يحملون اسم سعيد .[9]

والمشكلة هنا تزداد حدة بسبب ما يخلفه الهجين الاسمي من ثنائية الإحالة إلى مرجعيتين

ثقافيتين متناقضتين، فمن جهة هناك إدوارد بكل حمولتة الدلالية والثقافية والسياسية، ذات الصلة بكل أو بعض ما يفترض أنه كينونة بريطانية غربية كولونيالية . ومن جهة ثانية هناك سعيد بكل ثقله الدلالي الفلسطيني والعربي، فضلا عن امتداداته التاريخية و انزياحاته اللغوية وأبعاده الأنثروبولوجية. وعلى هذا الوجه لم يتيسر على الإطلاق ، بل لم يكن ممكنا أن يندغم الاسمان في وحدة دلالية متجانسة. هل يخلف صدع الاسم صدعا في الانتماء إذا؟

ثانيا : صدع اللغة و انشطار الذاكرة:

غير أن هذا التصدع في الاسم الشخصي لم يكن هو المفارقة الوحيدة في وعي إدوارد سعيد ، إذ يذكر بعدها مباشرة مشكلة لم تكن أقل إرباكا وإزعاجا من تهجين اسمه، هي مشكلة اللغة ؛ فهو لم يعرف أبدا أية لغة كانت لغته الأم، إن كلا من اللغة العربية و اللغة الانجليزية كان حاضرا في طفولته الأولى : " ما أعرفه هو أنّ اللغتين كانتا موجودتين دوماً في حياتي ، الواحدة منهما ترجِّع صدى الأخرى ، وتستطيع كلُّ منهما ادعاءَ الأولوية المطلقة ، من دون أن تكون هي فعلاً اللغة الأولى . وأنا أعزو مصدر هذا الاضطراب الأوّليّ إلى أمي التي أذْكر أنها كانت تحدّثني بالإنكليزية والعربية معاً على رغم أنها كانت تراسلني بالإنكليزية على مدى حياتها. "[10]

كانت هذه الازدواجية اللغوية من أكبر أسباب زعزعة الوعي بالذات وهي في طور التشكل عبر سياقها التاريخي والاجتماعي والثقافي ؛ إذ لم يفهم أبدا من أين تسللت اللغة الانجليزية إلى أمه وهو الفلسطيني العربي الذي ولد في القدس، وترعرع في القاهرة، وعاش طورا من حياته في لبنان. وربما كان الافتقار إلى هوية لغوية أحادية المرجع موضع اضطراب و قلق كبيرين، لم يجاوزهما الكاتب إلا بعد أن استعاد ذاكرته اللغوية العربية ، وهو في الثلاثين من عمره، كما يذكر هو شخصيا في المقدمة التي خصصها للطبعة العربية لكتابه: " خارج المكان".[11]

يذكر الكاتب أن أمه كانت متمكنة من اللغتين العربية والانجليزية معا ، لكنه لم يعرف أبدا من أين جاءت أمه بلغتها الانجليزية ، كما لم يعرف أي شيء عن هويتها القومية. وقد بدا الأمر ملغزا إلى حد جعله يقر بالعجز الكامل عن استيعاب كل هذه الأحاجي الأسرية، التي ولد ونشأ في كنفها، حتى إنه بعد أن انتابه هذا الشعور المقلق بتعدد الهويات، كان يتمنى بشكل محموم : " لو أننا جميعاً عرب كاملون أو أوروبيون أو أميركيون كاملون أو مسيحيون أرثوذكسيون كاملون أو مسلمون كاملون أو مصريون كاملون وما إلى ذلك . واكتشفتُ أني أمام خيارين أُجابهُ بهما أسئلة أو ملاحظات شكّلت بالفعل سياقَ تحدٍّ واعترافٍ وهتكٍ ، من نوع ((ما

أنت ؟)) ؛ ((لكن سعيد اسم عربي ...)) ؛ ((هل أنت أميركي ؟)) ؛ ((تقول إنك أميركي مع أنّ اسمك ليس أميركياً وأنت لم تزر أميركا قط)) ؛ ((لا يبدو شكلك أميركياً !)) ؛ ((كيف يُعقل أن تكون ولدتَ في القدس وأنت تعيش هنا؟)) ؛ ((أنت عربيّ ، في نهاية المطاف ، ولكنْ من أيّ نوع ؟ هل أنت بروتستاني ؟)) ".[12]

ليست ازدواجية اللغة عند إدوارد سعيد غير وجه من وجوه اختلال وجوده ، وإدراكه للعالم المحيط من حوله بفعل الملابسات السياسية والتاريخية والاجتماعية والثقافية، التي طالت كلا من بلاد الشام ومصر؛ وكأن إدوارد سعيد يلمح بشكل خاص إلى دور المشروع الكولونيالي الغربي في هذه الهجنة التي حاقت به ، وطالت تفكيره ووعيه وإدراكه للكون ، فضلا عن هويته وذاكرته.

إن التفكير هو دائما تفكير في حدود لغة ما وداخل لغة. واللغة من هذا الوجه وحدة لفظية وذهنية وتواصلية واجتماعية. لهذا كله يذهب آدام شاف Adam Shaff إلى اعتبار اللغة من حيث هي انعكاس للواقع الخارجي في الفكر ومن جهة كونها نسقا جاهز الصنع من الرموز والدلالات، إنتاجا ناشئا عن الممارسة المجتمعية بأوسع معاني الكلمة ؛ فالبشر يتكلمون حسب ما يوحي إليهم نمط الممارسة الاجتماعية، وكل تجربة مجتمعية عندما تثبت راسخة في اللغة، تصبح مسيطرة على تفكير تلك الجماعة الإنسانية سيطرة لا جدال فيها.[13]

من منطلق رؤية شاف للغة، وتصوره لتموضعها ضمن السيرورة الاجتماعية، ستكون هجنة إدوارد سعيد اللغوية ملمحا من ملامح التشرذم الحاد في إدراك الواقع - بوصفه وجودا مفارقا للذات - يرادفه تمزق عميق في الوعي بالأحداث والوقائع والتفصيلات الاجتماعية، بسبب ازدواجية استقبال معطيات العالم الخارجي ، من خلال لغتين متباعدتين كل التباعد في أنظمتهما الصرفية والنحوية وتمثيلاتهما الصورية المجازية والمعجمية للوقائع والأحداث والموجودات . وقد أدرك سعيد هذه الحالة الاغترابية مذ فرض عليه أن يتعامل مع اللغتين بوصفهما قناتي معرفة تصلانه بالعالم ، وتمدانه بقدر من الأفكار والاستجابات التعبيرية المتباينة أشد التباين .

لم يكن حضور اللغة الانجليزية في أسرته - وعلى لسان أمه تحديدا - أصيلا، ولا طبيعيا؛ لأنه لم يلبث أن أدرك نفسه في بيئة خارجية أغلب ما فيها عربي الوجه واليد واللسان. و اللغة لم تنفك منذ الأزل حاملة للنسق الثقافي والإيديولوجي والاجتماعي و الأنثروبولوجي الذي تصدر

عنه . ولكل لغة خصوصيتها البالغة الاختلاف والتعقيد بالنسبة إلى نظيراتها من اللغات البشرية الأخرى. ومن هنا تحتد مشكلة ازدواجية اللغة لتكشف عن هشاشة الكائن البشري أمام اصطراع الأنساق اللغوية ، خصوصا عندما يتعلق الأمر ببيئة ما تلبث أن تصير مضطربة لغويا واثنيا واجتماعيا وعقائديا و سياسيا كتلك التي نشأ فيها إدوارد سعيد.

ويشير سعيد فيما بعد إلى هذه المعضلة ،بوصفها عائقا فكريا و ابستيمولوجيا حادا ، تنصدع بسببه ذاكرته بشكل يتجاوز حدود الترجمة البسيطة للأفكار والرؤى والتصورات، المعبر عنها في لغة ما بنقلها إلى لغة أخرى. يذكر سعيد هذا القلق اللغوي الحاد قائلا : " والأكثر إثارة بالنسبة إليّ ككاتب هو إحساسي بأنّي أحاول دائماً ترجمة التجارب التي عشتها لا في بيئة نائية فحسب وإنما أيضاً في لغة مختلفة . ذلك أنّ كُلاً منا يعيش حياته في لغة معينة ، ومن هنا فإنّ الكل يختبر تجاربه ويستوعبها ويستعيدها في تلك اللغة بالذات . والانفصام الكبير في حياتي هو ذلك الانفصام بين اللغة العربية ، لغتي الأم ، وبين اللغة الإنكليزية ، وهي اللغة التي بها تعلّمتُ وعبّرتُ تالياً بما أنا باحث ومعلّم . لذا كانت محاولتي سردِ التجارب التي عشتُها في اللغة الأولى بواسطة اللغة الأخرى مهمة معقّدة ، ناهيك عن الطرائق المختلفة التي بها تختلط عليّ اللغتان وتعبُران من حقل إلى آخر . وهكذا صَعُبَ عليّ التعبير في الإنكليزية عن الفروقات اللفظية (والوشائج العينية) التي تستخدمها العربية ، للتمييز مثلاً بين العم/ة والخال/ة ، ولكني اضطررتُ إلى محاولة التعبير عن تلك التلاوين لأهمية الدور الذي لعبته في حياتي المبكرة ".[14]

لقد كان عليه إذاً أن يتجاوز هذه الفجوة التي يشير إليها "بيل أشكروفت " Bill Ashcroft في معرض حديثه عما تسفر عنه الامبريالية من اغتراب لغوي عميق، يطال ثقافات ما قبل الكولونيالية، نتيجة للقمع العسكري أو الاسترقاق؛ ففي ظل هيمنة اللغة الكولونيالية ، تنفصم عرى الذات مع لغتها الأم، لتنشأ فجوة واسعة ، بفعل الإزاحة اللغوية التي مارستها اللغة الكولونيالية (الانجليزية) على لغة ماقبل الاستدمار.[15]

لأجل هذا لا يغفل إدوارد سعيد عن الإشارة إلى أن الواقع الكولونيالي، الناشئ عن كون مصر وفلسطين واقعتين تحت سيطرة الاستدمار البريطاني، هو الذي أسفر عن تعميق هذه الازدواجية اللغوية في تفكيره ولسانه، بوصفها إحدى التراكمات الراسبة التي خلفها الاستدمار الأوروبي في المجتمع العربي . وقد كان من شأن هذه الازدواجية اللغوية أن تقلقل هويته العربية، وتربك شعوره بالانتماء في بعض أطوار دراسته بالقاهرة، حين كان تلميذا في إعدادية الجزيرة، و

مدرسة القاهرة للأطفال الأمريكيين، و فيكتوريا كولدج؛ إذ يشير إلى تجربته الدراسية في فيكتوريا كولدج باعتبارها صورة القهر الكولونيالي الذي بسط سلطانه وسيطرته على السكان الأصليين، من خلال أشد أنواع الإبادة الثقافية تأثيرا : " فجأة حولنا كراس صغير بعنوان دليل المدرسة إلى ((سكان أصليين)). تقول القاعدة رقم واحد فيه: ((الانكليزية هي لغة المدرسة. كل من يقبض عليه متكلما لغات أخرى يتعرض لعقاب صارم)). فصارت العربية ملاذنا لغة مجرمة نلجأ إليها من عالم الأسياد المتواطئين ومن زملائنا المتأنكليزين الأكبر سنا الذين يتجبرون علينا باسم فرض التراتب المدرسي ".[16]

هذه الصورة الفجة هي ذات الصورة القاتمة للممارسات الكولونيالية المدمرة في كل مكان؛ إذ لا يكتفى فيها بفرض اللغة الأجنبية بالقوة والقهر فحسب ، بل هو فرض يتزامن و محاربة اللغة الوطنية والقومية ، وإجهاض مشاريع النهوض الثقافي بها. إن أقوى وسيلة للهيمنة الكولونيالية هي إدراج لغة المستعمر (بكسر الميم) وملحقاتها الثقافية والأدبية و التاريخية، في المنهج التعليمي. ولعل هذه الحقيقة هي من أبرز ما يتأكد في دراسات ما بعد الكولونيالية، كما يتبين من دراسة غاوري فيسواناثان* في كتابها " أقنعة الامبراطورية الدراسة الأدبية و الحكم البريطاني في الهند" الذي أشارت فيه إلى أن إدخال اللغة الانجليزية في المنهج التعليمي كان من نتائجه تغريب الأطفال عن ثقافتهم[17] . ومن هنا لا تستغرب إشارة إدوارد سعيد إلى هذه الصرامة في عقاب من يتحدث بالعربية . داخل المدرسة . بضربه بالعصا، أو بمعاقبته بنسخ جملة ما، أو باحتجازه بعد انتهاء الدوام، بل إنه قد طرد من فيكتوريا كولدج لتمرده وإلحاحه على استعمال العربية جهرا.[18]

ثالثا : تشظي الهوية واستحالة الانتماء :

على مدى ما يربو عن ثلاثمئة وخمسين صفحة لم ينس إدوارد سعيد أبدا كونه ضحية من ضحايا المشروع الكولونيالي الغربي؛ فعبر كل مراحل حياته تقابله علة ما، أو يعترضه سبب ما للحيلولة بينه وبين أن يتبين بدقة ملامح ذاته الاجتماعية والثقافية وحتى السياسية، بشكل يطمئن به إلى هوية مستقرة لا يطالها التشظي.

لم يعرف إدوارد سعيد قط موقعه الفعلي من الأمكنة، واللغات، والعقائد، والأديان، و الأعراق والطوائف. كأن قدره أن يقف دائما في المنتصف من كل هذه التمايزات بجميع أشكالها وأنواعها. وخلال استعراضه لتفاصيل حياته ، تنطبع صورة من البينونة العميقة مع أي تجذر عرقي أو تجانس ثقافي واثني وتعليمي ؛ ففي معرض سخريته من الطريقة التي تم اختراعه وتركيبه بها في عالم والديه وإخوته ، يشير إلى اضطراره إلى ابتداع مختلف الأجوبة التي لا يذكر أن أيا منها كان مقنعا . كما إن تبنيه لنبرة أبيه التوكيدية بأنه مواطن أمريكي * كان سيجعل منه كائنا خرافيا ، وهو الخيار الأقل إقناعا. لكن الخيار الثاني لم يكن هو الآخر ليوفر له أية طمأنينة أو سكينة وجودية ؛ إذ نراه وقد حاول أن يستجمع عناصر تاريخه، ليعيد تركيبها نتفة نتفة بشيء من الانتظام، إلا أن الصورة لم تكن من الوضوح على قدر كبير. فوالداه كانا فلسطينيين من بيئتين مختلفتين ، ومزاجين متغايرين كليا، يعيشان في القاهرة (الكولونيالية) ، من أقلية مسيحية ضمن مزيج من الأقليات، ثم إنهما فاقدان لأية أعراف يهتديان بها في سلوكهما، باستثناء مزيج غريب من عادات فلسطينية عتيقة ، وحكم انتقاها أبوه من كتب ومجلات شتى خلال إقامته بأمريكا، يضاف إليها " بعض مواقف بريطانية كولونيالية تمثل الأسياد وسواد البشرية التي يحكمها هؤلاء الأسياد ".[19]

كما حقق إدوارد سعيد هذا الإحساس بعدم الانتماء ، في ظل الإشارة إلى هشاشة صلته بالمكان . الوطن الفلسطيني بما هو امتداد وجودي أو معلم هوية . نفسيا وذهنيا، فهو يذكر كيف كانت فلسطين بالنسبة له مكانا يسلم به تسليما بوصفه موضع انتمائه، ولكن ذكرياته عن فلسطين عادية جدا، بل الغريب أنها غير لافتة.[20]

عندما يستذكر إدوارد سعيد طور إقامته في القاهرة ، بعد انتقال أهله إلى العيش في حي الزمالك 1937 ،لا ينسى أن يلمح إلى هذا الفرق الديمغرافي و الاثني بينه وبين حي الطالبية في

القدس الغربية؛ فبينما تميز حي الطالبية بتجانس السكان من العقائدي والعرقي والاجتماعي، إذ يقطنه تجار ومهنيون ميسورون ، كان حي الزمالك صورة مثلى لتجلي المركزية الغربية ، وطغيان الهيمنة الكولونيالية، في أبرز معانيهما.[21]

وتبرز الفروق الاجتماعية الملمح إليها آنفا، حادة قوية أثناء دراسته في إعدادية الجزيرة؛ فهاهو ذا يدرس مع تلاميذ ينتمون إلى اثنيات وأديان وأعراق مختلفة، لكنه لا يلمح حضور أي عربي مسلم، فالتلامذة كلهم من الأرمن واليونانيين واليهود المصريين والأقباط ، فضلا عن عدد غير قليل من التلامذة الانكليز[22]. هي إذا صورة بارزة لفسيفساء بشرية عجيبة أفرزتها الممارسات الكولونيالة ، التي عملت على انتزاع أية علاقة للفلسطيني إدوارد سعيد بالقاهرة بوصفها مكانا من شأنه أن يغني عقل ووجدان سعيد الطفل والشاب بالعناصر اللازمة لتشكل الوعي بالهوية .

إن عملية إفقار المكان من رمزيته الأنثروبولوجية وتجريده من دلالاته التاريخية والحضارية، عبر تفكيك النسيج الاجتماعي و إضعاف الروابط الوجدانية التي تصل الإنسان بالأرض والتراب أو الوطن هي ما يلمح إليه بيل أشكروفت Bill Ashcorft عندما يتحدث عما أسماه الإزاحة عن المكان (dislocation) إذ تتسبب تجارب اجتماعية وسياسية كالهجرة القسرية أو الاسترقاق أو النفي و الإبعاد، في إضعاف شعور الإنسان بالمكان وأهميته إذ ينتهي التشويه الاجتماعي والثقافي والقمع الواعي أو غير الواعي للشخصية والثقافة الأصليتين إلى فرض نموذج اجتماعي و ثقافي عنصري يفترض دائما أنه الأعلى؛ مما يبقي ديالكتيك المكان والإزاحة ملمحا دائما من ملامح مجتمعات مابعد الكولونيالية وكتاباتها وأدبها.[23]

وقد كان لهذه المركزية الغربية، و الهيمنة الكولونيالية دور عنيف في خلخلة الشعور بالانتماء ، مما زاد من حفز توجس الكاتب من هذه الهوية المزورة التي التصقت به رغما عنه ؛ فهاهو سعيد العربي الفلسطيني قد صار بلا مقدمات أمريكيا رغما عنه، و كان من قدره أن يعايش ويلات الحرب العالمية الثانية بوصفه رعية أمريكية مهددة بالفناء بسبب هجوم الجيش الألماني بقيادة رومل على الاسكندرية فالقاهرة، ثم هاهي ذي عائلته تحذره من الاقتراب من الناس في وسائل النقل العامة ، بل إن والديه يذهبان إلى تصوير البيت والعائلة بوصفهما الملجأ الوحيد الآمن في زريبة الرذائل المحيطة بهم.[24]

على هذا الوجه، وانطلاقا من هذه الهوية المزورة يصير المصريون . مع كونهم عربا و مسلمين في الأغلب . موضوع حكم سالب صادر من منطق استعلائي.لهذا لم يطمئن سعيد يوما

إلى دوره كمصري ؛ فرغم أنه أحب القاهرة (المكان) ، إلا أنه لم يقتنع بفكرة تمصره هو أو عائلته.

في طفولته نهض جزء من وجود إدوارد سعيد وعلاقته بالمكان (القاهرة خصوصا) على الولاء الزائف لدولة كولونيالية لم يتبين إدوارد سعيد يوما أية علاقة له بها سوى انتساب كاذب، لا يسنده أي دليل عرقي أو لغوي أو اجتماعي أو ثقافي. وقد ألمح هو إلى هذه المسألة عندما أشار إلى التحاقه بمدرسة الأطفال الأمريكيين بقوله: " انتسبت إلى مدرسة القاهرة للأطفال الأمريكيين في خريف عام 1946 بصفتي ابن رجل أعمال أمريكيا وأنا لا أملك أدنى شعور بالانتماء إلى أمريكا .[25]

لقد تسببت منطقة عدم الانتماء التي فرضتها الأحداث على سعيد . في مراحل مختلفة من عمره . في ترسيخ شعوره القوي بالنفي منذ صغره. وهو نفي تجسد في هذه العزلة القوية الناشئة من العيش خارج الجماعة، عندما شعر بضروب من الحرمان . كما يقول . بسبب عدم وجود المرء مع الآخرين في الموطن المشترك. وفي ظل هذا الوضع يتساءل سعيد : " كيف للمرء إذا أن يتجاوز عزلة المنفى دون أن ينزلق إلى لغة التفاخر القومي ، والعواطف الجمعية ، وأهواء الجماعة ، تلك اللغة الجامعة والراعدة ؟ " .[26]

إن حالة (اللامكان) التي أشار إليها الشاعر العراقي عبد الوهاب البياتي في قصيدته المشهورة (مسافر بلا حقائب) * هي نفسها التي تسم مرحلتي الطفولة والشباب المذكورتين في مذكرات سعيد بهذا الطابع من الإحساس الحاد بالضياع وانعدام الوزن ، فما المنفى في الجوهر غير حالة متقطعة من حالات الكينونة ؛ لأن المنفيين مجتثون من جذورهم ومن أراضيهم ، وماضيهم ؛ لهذا يتكاثف لديهم الشعور بالحاجة الملحة إلى خيار إيديولوجي يلملم شظايا حياتهم المحطمة ، وما هذا الخيار في النهاية سوى الانضواء تحت مظلة الإيديولوجيا الظافرة ، تماما كما هو بين من وضعية عائلة آل سعيد.[27]

إن تضاؤل حضور المكان بوصفه هوية أو تفاعلا حميميا مشتركا بين أفراد الجماعة البشرية ينهض على العجز عن لملمة شظايا المكان بما هي وقائع حية تسهم العوامل التاريخية والتراكمات الاجتماعية والأنساق الثقافية و المظاهر اللسانية في صياغتها ضمن مشهد موحد يلتقي عليه الأفراد والأسر وسكان القرى والمدن ليشكل في النهاية ملمحا عضويا من الصورة العامة لنمط العصبية الذي تجتمع عليه الجماعة البشرية .

لقد تجسد الإدراك السعيدي لانفصام القاهرة المكاني الناشئ عن الهيمنة الكولونيالية على مستويين رئيسيين أحدهما مستوى اللغة التي وجد سعيد نفسه مكرها على التخاطب بها في المدارس الكولونيالية بالقاهرة . والآخر هو مستوى التركيز السكاني وتلويناته الثقافية والسياسية التي تحكمت في التوزيع الديمغرافي لجغرافية القاهرة وأحيائها.

ومنذ الصفحات الأولى للمذكرات لا يغفل سعيد عن الإشارة إلى هذا الانفصام؛ فقد بلغت الصفة الكولونيالية للوجود البريطاني حدا من الصراحة والانكشاف جعل سعيد يشير إليه بجلاء عند تعرضه للمواقف البريطانية التي تقسم البشرية كلها إلى طبقتين إحداهما تمثل الأسياد و الأخرى سواد البشرية التي يحكمها هؤلاء الأسياد .[28]

وأثناء الحديث عن جغرافية القاهرة يتصدر حي الزمالك المشهد لأنه الحي الذي استقرت فيه عائلة سعيد ، ولكنه من جانب آخر لا ينسى أن يتعرض إليه بوصفه إحدى العلامات البارزة لانفصام القاهرة المكاني حين يقول : " لم تكن الزمالك تشكل جماعة موحدة وإنما كانت أشبه بالمركز الكولونيالي الأمامي يتحكم فيه الأوروبيون الذين لم يكن لنا – لم يكد يكون لنا – اتصال بهم ".[29]

ومع أن القاهرة في فكر سعيد وتصوره تنطوي على نوع من الاسترخاء، يسمح لهويات من شتى الأشكال بالتواجد ضمن مزيج من التواريخ والروايات والتواجدات التي تتقاطع وتتعايش بطريقة يسميها طبيعية ، وبما يسمح له أن يسميها بالمدينة الممتعة ؛ إلا أنها برغم هذه الصفة تظل منقسمة على نفسها فمن جهة هناك هذا الجسم الغريب الذي يستقر في الزمالك أوفي غاردن سيتي ، حيث السفارات الأجنبية ، والبريطانية نواة السلطة الحاكمة المركزية. ومن جهة هناك القاهرة الإسلامية [30*]غير المستوعبة وغير المنطقية ، والتي يصعب وصفها بالنسبة إلى الغرباء ، ولكنها بالنسبة لإدوارد سعيد حقيقية جدا ؛ لأنها تشتمل على تجارب إسلامية وعربية وإفريقية مناهضة للاستدمار، كما تجتمع فيها ثروات ثقافية على المستوى اليومي ، في أحياء مثل بولاق شوبرة العتبة الجمالية باب اللوق.[31]

رابعا : إدوارد سعيد والمشروع الكولونيالي :

منذ سنوات دراسته الأولى يتفتح وعي سعيد على المشروع الكولونيالي بكل تنويعاته وملامحه العرقية واللغوية والسياسية . يكتشف سعيد مع مدارس القاهرة أن وجوده الفلسطيني محدود جدا ، وكينونته العربية مقموعة ومطاردة ومنفية ، أما اللغة العربية فهي مضطهدة بقوة القانون والأعراف البريطانية السائدة في المدارس ، ويجري هذا كله في جدلية محكمة ومحروسة بدقة لأنها بكل بساطة جدلية الأسياد والعبيد .

ومنذ انتسابه الأول إلى مدرسة الجزيرة الإعدادية يلحظ إدوارد سعيد نسبة الحضور العالية لغير العرب سواء على مستوى الأساتذة أو على مستوى التلاميذ ، وكأن الدراسة والانتساب إلى المدرسة لا يتحققان إلا عبر اصطفاء عرقي مبرمج مسبقا على إسقاط أي مصري وعربي بالأصالة : " لم يكن في المدرسة أي أستاذ مصري ، كما لم أع أي حضور عربي مسلم : فالتلامذة أرمن ويهود مصريون وأقباط ، بالإضافة إلى عدد غير قليل من أولاد الانكليز ، بمن فيهم كثرة من أبناء الأسرة التعليمية . " [32]

لكن استدعاء سعيد للتجربة المدرسية لا ينفتح على الإشارة كثافة الحضور الكولونيالي في القاهرة فحسب ، بل ينهض على استدعاء كامل عناصر الصورة التي تكشف البرنامج الكولونيالي للوجود الأجنبي عبر المدارس الغربية الموجودة في القاهرة . وقد عني البرنامج الكولونيالي إلى إرساء مناهج ونظم تنهض في المقام الأول على إعلاء جميع المكونات التي تتحدد بها الهوية الكولونيالية الغربية بوصفها النمط المهيمن - والناجع في الآن نفسه – على الحياة المصرية ، ويذكر سعيد هنا كيف تم صياغة وجوده في المدارس الكولونيالية بشكل يقوم على الإلحاق والاستتباع والقضاء على الفوارق الاثنية و العرقية واللغوية والثقافية ، إذ يفصل سعيد جو الدراسة في مدرسة إعدادية الجزيرة على هذا النحو : " وقد منحتني إعدادية الجزيرة اختباري الأول لنظام محكم أنشاه البريطانيون كمهمة كولونيالية .كان الجو جو طاعة عمياء يؤطرها إذعان بغيض عند المعلمين والتلامذة على حد سواء . ولم تكن المدرسة مثيرة بما هي مكان للعلم ، ولكنها زودتني بأول اتصال مديد مع السلطة الكولونيالية من خلال الانجليزية القحة لأساتذتها وللعديد من التلامذة. "[33]

لكن طابع الهيمنة والإذعان والطاعة العمياء المتجاوبة مع النسق الكولونيالي الذي يسحق أية محاولة للتفرد الإثني والتميز اللغوي والثقافي لم يكن هو وحده ما أرق إدوارد سعيد ، فاللافت للنظر أن مصفوفة المواد التي يجري تدريسها في إعدادية الجزيرة كانت كلها متمركزة حول الذات الغربية والتاج البريطاني ، يذكر إدوارد سعيد أن : " الدروس والكتب انكليزية على نحو ملغز ، نتعلم فيها عن المروج الخضر والقصور وعن الملوك جون وألفرد وكانوت ، بالجلال الذي يستحقونه ، حسبما يذكرنا معلمونا بلا انقطاع ... تجدهم يولون أهمية مبالغا فيها لمعركة هايستنغز ولشروح مستفيضة عن الأنجلز والساكسون والنورمان . " [34] ثم لا يكتفي سعيد بالإشارة هذه الدروس بل يعمد إلى وصفها ساخرا بأنها دروس الأمجاد الانجليزية .

وإذ يستعيد إدوارد سعيد هذه الوقائع ويصوغ منها خلاصة تجاربه المدرسية بعد إشارته إلى وقوع الوطن العربي تحت سلطة الدولة العثمانية ، وسقوطه بعدها فريسة للاستدمار الغربي ، لا ينسى أن يركز على طابعها الكولونيالي الذي بدا واضحا جدا في الاستبعاد العمدي لأي مادة تصل التلميذ العربي بتاريخه وهويته وكينونته الثقافية : " وفي حالتي ، مثلا ، فقد تلقيت كامل تعليمي في مدارس كولونيالية بريطانية في فلسطين ومصر، حيث تركزت الدراسة برمتها على تاريخ المجتمع الانجليزي، وأدبه ، وقيمه. " [35]

إن تجربة سعيد المدرسية ليست غير صورة لنظام استيطاني سافر يتعمد تكريس وجوده بترسيخ ملامح القوة العسكرية والتفوق المدني والسبق الثقافي سعيا إلى خلق أسطورة الألوهة الغربية ؛ فعبر التركيز على الأمجاد الانجليزية يتم زرع الغرب في المتخيل العربي الإسلامي بما هو قوة قاهرة وكيان مافوق بشري يستعصي على المطاولة والندية .

إن تشكيل صورة الغرب في المتخيل العربي والإسلامي لا بد أن يخضع لاستراتيجية تدريسية محكمة يشير سعيد إلى عواقبها في مذكراته عندما يتحدث عن تجربته المدرسية الثانية في فيكتوريا كوليدج * قائلا : " اتسمت حياتنا في فيكتوريا كوليدج بتشوه كبير لم أدركه حينها. كانت النظرة السائدة للتلامذة أنهم أعضاء تمموا دفع اشتراكاتهم , في نخبة كولونيالية مزعومة يجري تعليمها فنونا امبريالية بريطانية قضت نحبها، مع أننا لم نكن ندرك ذلك تماما. علمونا عن حياة انكلترا وآدابها ، وعن النظام الملكي والبرلمان عن الهند وإفريقيا ، وعن عادات واصطلاحات لن نستطيع استخدامها في مصر أو في أي مكان آخر. " [36]

إن منهج التعليم المشار إليه آنفا ينبني على استراتيجيتي الإحلال والإزاحة بوصفهما

عمليتين كولونياليتين ضروريتين لنجاح المشروع الغربي ، وهما عمليتان قابلتان للتطبيق على مستويات شتى وبمناهج مختلفة ، بدءا من المستوى الديمغرافي الذي ينهض على تغيير سكان الأرض بإزاحة أهلها ومالكيها الأصليين من المشهد العمراني ومن ثمة إحلال دخلاء وغرباء لا صلة لهم بالأرض مكانهم .

إن هذه الحقيقة هي ما ألمح منير العكش إليها عندما لفت الانتباه إلى الخلفيات التوراتية والتلمودية التي برر بها البريطانيون احتلالهم أمريكا وتصفيتهم لسكانها ؛ فقد أبرز أن التلازم الوثيق بين آليات المحو العرقي والإبادة الثقافيين من جهة والاجتياح العسكري للمكان مع تغيير معالم العمران، من جهة أخرى ، هو السمة المركزية التي يتدرع بها المشروع الكولونيالي في مواجهته للسكان الأصليين . ولعل استدعاء شهادة الكاتب الأمريكي المشهور مارك توين وتوظيفها كعتبة نصية لأحد الفصول أمر بليغ الدلالة على آليات المحو التي ينهض عليها المشروع الكولونيالي ؛ إذ يقول مارك توين : " وقفت بجانب وزير الحرب وقلت له إن عليه أن يجمع كل الهنود في مكان مناسب ويذبحهم مرة وإلى الأبد . وقلت له : إذا لم توافق على هذه الخطة فإن البديل الناجع هو الصابون والتعليم soap and education . فالصابون والتعليم أنجع من المذبحة المباشرة ، وأدوم وأعظم فتكا. إن الهنود قد يتعافون بعد مجزرة أو شبه مجزرة ، لكنك حين تعلم الهندي وتغسله فإنك ستقضي عليه حتما ، عاجلا أو آجلا . التعليم والصابون سينسفان كيانه وسيدمران قواعد وجوده. وقلت له سيدي ، اقصف كل هندي من هنود السيول بالصابون والتعليم ، ودعه يموت " . [37]

إن هذه المتلازمة الكولونيالية التي اقترحها مارك توين على وزير الحرب هي نفسها التي يستعيدها سعيد بوجوه شتى وفي مراحل مختلفة من سنوات دراسته بالقاهرة مدركا تماما أن الهجنة التي حاقت به، وبتت صلته الثقافية بجذوره العربية الفلسطينية ، إنما ترجع أساسا إلى أطوار دراسته الأولى قبل أن يكتسب الحصانة الفكرية والقومية التي تحمله على النقد والتمحيص و اللواذ بهويته الثقافية في مواجهة أي مشروع أجنبي .

ولا يخفى أن أول أهداف المشروع الكولونيالي هو كسر العمود الفقري للشعوب المستضعفة من خلال التطهير الثقافي الذي ينهض على مسخ الآخر المستعبد وإلحاقه بثقافة الغازي النرجسية ، وبالمقابل تقضي آلة الاستدمار المتوحشة على جميع المظاهر المحلية التي تشكل الصورة الأنثروبولوجية للسكان الأصليين كاللغة والثقافة والتراث الروحي.

ويستعيد إدوارد سعيد هذا المخطط بوضوح شديد في قوله : " ولما كان الانتماء العربي وتكلم اللغة العربية يعدان بمثابة جنحة يعاقب عليها القانون في فيكتوريا كولدج فلا عجب ألا نتلقى أبدا التعليم المناسب عن لغتنا وتاريخنا وثقافتنا وجغرافية بلادنا ... أدركت في قلبي أن حياتي السابقة وأن ادعاء أهلى أنني مواطن أمريكي قد تهاقت فقد بتنا ندرك جميعا أننا دونيون نواجه قوة كولونيالية جريحة وخطرة وقابلة لأن تؤذينا ونحن مجبرون على تعلم لغتها واستيعاب ثقافتها لكونها هي الثقافة السائدة في مصر ". [38]

لاحظ إدوراد سعيد هذا الإصرار على توكيد عبادة الذات عند البريطانيين ، وأدرك أنه يشتغل كجزء رئيس ضمن ميكانيزمات قهر الآخر واستتباعه وإلحاقه بثقافة الاستعلاء النرجسي التي تنهض هي الأخرى على سياسية خطرة جدا هي تعرية الشعوب ثقافيا بتحويل أفرادها وجماعاتها إلى مجرد رعايا ضمن النظام الكولونيالي العام، الذي يعمل على سحق هويتهم الثقافية بتشكيل نخب محلية ليتم تعليمها مبادئ الثقافة الأجنبية بمصطلحات وطرق مصممة لإبقاء تلك النخب المحلية خانعة للأجانب وحكمهم الكولونيالي . ومن المفارقات الساخرة التي يشير إليها إدوارد سعيد _ في هذا السياق _ هي أن كرومر وكتشنر وأمثالهما كانوا أكثر ألفة لديه من هارون الرشيد أو خالد بن الوليد . [39]

ولا ريب أن المدرسة في النظام الكولونيالي هي إحدى الوسائل الإيديولوجية القوية الجاهزة دوما _ على رأي لوى ألتوسير _ لأداء وظيفة الجراحة العقلية الناهضة على اقتلاع النسق الثقافي الوطني وزرع نسق ثقافي غريب وأجنبي مكانه . ويجري كل هذا عادة في إطار من المصاحبة العاطفية والانفعالية والوجدانية يتحول معها النسق الغريب إلى نسق مهيمن و متجذر في البناء العقلي والذاكرة الوجدانية للضحايا الذين لا يشعرون في العادة بما يجري عليهم من عمليات غسيل الأدمغة ؛ إذ يكون الجزء المستهدف من ذواتهم غالبا هو قطاع العادة واللاشعور، الذي يشكل مرتعا خصبا لغرس أنماط الولاء الثقافي والفكري للأجنبي عن طريق ما يسمى اليوم في أدبيات الاستدمار (soft power) أو ما أصبح يعرف عندنا بالقوة الناعمة .

لكن حسن حظ إدوارد هو أن الكبرياء الكولونيالي البريطاني حال نوعا ما دون توظيف هذه الحيلة ، إذ جاء فرض الثقافة الأجنبية الدخيلة مشفوعا بقوة السلطة والقوانين الجائرة وسافرا دون أي غطاء : " فجأة حولنا كراس صغير بعنوان دليل المدرسة إلى ((سكان أصليين)) تقول القاعدة رقم 1 فيه الانجليزية هي لغة المدرسة كل من يقبض عليه متكلما لغات أخرى

يتعرض لعقاب صارم . فصارت العربية ملاذنا، لغة مجرمة نلجأ إليها من عالم الأسياد ومساعدي الأساتذة المتواطئين ومن زملائنا المتأنكليزين الأكبر سنا الذين يتجبرون علينا باسم فرض التراتب المدرسي وتطبيق قوانينه ".[40]

خامسا : إدوارد سعيد والجروح الكولونيالية

إن تجربة استعادة الاستقلال عقب طرد الوجود الكولونيالي من الوطن العربي لم تكن لتكتمل بغير تعليم اللغة العربية بوصفها لغة وطنية وقومية ، تنضوي ضمن ما يمكن تسميته حسب بورديو بالرأسمال الرمزي للأمة . وعلى هذا الوجه فسر إدوارد سعيد التجربة الجزائرية في إلزام جيل كامل من المسلمين لأول مرة بعد 1962 بدراسة العربية؛ إذ إن استعادة هذه المنطقة التعليمية التي ظلت محكومة لمدة طويلة من قبل الحكام الفرنجة ، تنهض على إرادة تجاوز ذلك الجرح الروحي الهائل الذي انغرز في الوجدان الجماعي للأمة بسبب الحضور الراسخ لأولئك الأجانب المستبدين المجرمين ، الذين حرصوا في كل أطوار استباحتهم لأوطان غيرهم على توكيد معايير ثقافة مفترسة وطاغية ومتوحشة بوصفها نظاما حضاريا متعاليا ، في مقابل وضع ثقافات الشعوب الضعيفة موضع الاحتقار والإهانة [41]

وتتجلى الجروح الكولونيالية في مدونة سعيد على المستوى الفردي غائرة وعميقة وعصية على النسيان ، فالمواجهات والعلاقات بينه وبين أساتذته الانجليز كانت تأخذ في بعض الأحيان طابعها العنصري الصارخ والصريح الذي يكشف عن احتقار عميق ومتجذر لدى العجوز البريطانية لكل ما هو عربي . ورغم ما كان يفترض في مدرسة غربية علمانية من حيادية وموضوعية مطلقة في التعامل مع مرتاديها الصغار إلا أن الأمر لم يكن يجري دائما على ذلك القدر من النزاهة المفترضة والمتخيلة ؛ فقد ظلت ظلت مقولة رديارد كيبلينغ التاريخية ومثيلاتها تعشش في أذهان المدرسين وتوجه طرق معاملاتهم للتلاميذ وتملي عليهم أسباب التمييز بينهم.

ويذكر سعيد بعض التجارب المؤلمة التي واجهها في المدارس الكولونيالية ، وأيقظت في نفسه وعيا مبكرا بسقوط الدعاوى الكولونيالية المتصلة بالعدالة والمساواة والتحضر؛ فقد أدرك سعيد منذ البداية أن لأولاد الانجليز شأنا خاصا ومختلفا جدا يعسر بسببه أن ينشئ له أية علاقة تربطه بهم ويعلل الأمر بأن حبل سرة سريا غامضا كان يجمعهم ويخفيهم في عالم مغلق عليه. [42]

و لا ريب أن هذا العالم لم يكن غير عالم الأسياد الذين يضمرون في أنفسهم دوما كراهية الخدم والعبيد . وليس غريبا من هذه الرؤية أن المدرسة الأولى التي انتسب إليها إدوارد سعيد (

إعدادية الجزيرة) في مصر كان الطابق العلوي فيها مريبا ؛ لأنه يقوم على تواجد سري وخفي وعلى نشاط بعيد عن الأنظار، أربك سعيدا الفتى : " صدمتني الغرف العلوية لكونها أماكن سرية تنعقد فيها اجتماعات انجليزية غامضة " .[43]

إن عالم الأسياد عالم سمائي متعال ومقدس بينما عالم العبيد عالم أرضي قبيح ومدنس ، هذا ما تؤكده القاعدة الكولونيالية التي تنز بسببها جروح إدوارد سعيد ألما ويفيض بها حلقه غصصا ، إذ يذكر أنه بعد أن تعرض لفلقة عقابية قاسية من رجل بريطاني بدين تلذذ بجلده بسادية مطلقة على مؤخرته ، يذكر كيف أنه عايش تجربة كولونيالية شديدة الحدة وممعنة في السفور ، إذ تأبى الواقعة إلا أن تعلن عن نفسها في جفاء بيِّنٍ وفظاظة بالغة عندما اعترضه . وهو تلميذ في نادي الجزيرة . أحد المدرسين الانجليز ، يدعى مستر بيلليه ، وتقدم نحوه منكرا عليه أن يتواجد في نادي المدرسة ، ثم طرده قائلا : " ممنوع على العرب ارتياد هذا المكان وأنت عربي " . والغريب في الأمر أن سعيدا عندما شكا لأبيه (ذي الجنسية الأمريكية المزعومة) سلوك الانجليزي لم يلق أي اهتمام جاد بالواقعة من جهته . وقد علق سعيد على هذه الواقعة بقوله : " وشد ما يحز في نفسي الآن ، بعد مضي خمسين سنة، أنه على الرغم من أن الحادثة لازمتني مدة طويلة جدا وكانت مؤلمة حينها ، مثلما هي الآن ، فقد بدا وكأنه يوجد عقد استسلامي بيني وبين أبي توافقنا فيه على أننا ننتمي بالضرورة إلى مرتبة دنيا . كان هو يعرف ذلك ، أما أنا فقد اكتشفته لأول مرة عندما جابهت بيلليه ، غير أن أبا منا آنذاك ، لم يجد أن الأمر يستحق نضالا من أي نوع ، ولا يزال ذلك الإدراك يشعرني بالخجل ".[44]

إن الوقائع التي تسللت من ماضي إدوارد سعيد إلى مذكراته تطفح بشتى أنواع الجروح الكولونيالية التي تذكرنا بقول قرمطي الكوفة الشهير:

فصرت إذا أصابتني سهام تكسرت النصال على النصال

ولكن تنويعاتها المختلفة منحت الصبي إدوارد قدرا من إرادة المقاومة ودفعته إلى السخرية من النظام الكولونيالي ، بل إبداء التحدي أحيانا . ويمكننا تلمس بعض مظاهر من خلال إشارته إلى جنوحه وانضمامه إلى قادة التمرد من قليلي الاحترام للأساتذة، بل إنه كان _ كما يذكر _ دائم الاستعداد لجواب ساخر ملغز ، وقد كان هذا كما يذكر شكلا من أشكال المقاومة للبريطانيين .[45]

وليس غريبا أن يحتفظ إدوارد سعيد بحس السخرية من البريطانيين ، ويوظفه في

مذكراته بشكل عميق الدلالة على موقفه من تلك المرحلة ؛ فهو عندما يتحدث عن بريطانيا الجريح العجوز المتهاوية ، لا يغفل عن أن يمثل لها بقوله : " وخير تجسيد لتلك السلطة الكولونيالية المتهاوية هو رئيس المدرسة، المستر جي جاي إي برايس ، وترمز غابة الأحرف الأولى التي يحملها إلى الهوس بالنسب الرفيع والمباهاة بالنفس ، وقد اعتبرت ذلك على الدوام ، منذ ذلك الحين من الصفات الميزة للإنجليز ... وكان برايس رجلا قصير القامة ، مربوعها ،له شارب أسود مثل الفرشاة ، يمشي مشية ميكانيكية وهو يرافق كاب صيده إلى الملاعب وهو رجل منعزل من جهة لأن معظم صلاحياته توزعها الأساتذة ومساعدوهم من التلامذة ورؤساء الفرق ومن جهة أخرى لأن صحته كانت تتدهور بسرعة وهو ما اضطره إلى الاستقالة أخيرا بعد أن قضى عدة أسابيع مختبئا في مكتبه ".[46]

صفوة القول هي إن قراءة سعيد للتجربة الكولونيالية مع الاستدمار الصهيوني من جهة والاستدمار البريطاني من جهة وما أعقبها من تشوه كبير ، كان لها أثر بليغ في انفتاح وعية على أعقد التجارب الفكرية على المستوى الإنساني ، والمراد هنا تجربة تمثيل الآخر ثقافيا وسرديا وأدبيا؛ فالصورة التي نشكلها عن الآخرين هي نتاج وعينا بحضورهم على مسرح وجودنا وما يستتبع هذا الحضور من تحيزات عرقية أو إيديولوجية أو دينية أو تاريخية .

ومن هنا فإن العوامل الأسرية الأولى والظروف والملابسات الاجتماعية والتاريخية والسياسية، التي نما إدوارد سعيد وترعرع في ظلها كان لها أثر بارز جدا في تشكيل وعيه الحاد بالخطورة الابستيمولوجية لخطاب المؤسسة الاستشراقية ، بوصفه خطابا نرجسيا ينهض على النظرة إلى الآخر وفق منظور اختزالي يغلب عليه طابع التعميم المسرف والتنصنيف السطحي للجماعات البشرية في المشرق بما هو موضوع دراسة واختبار.

هوامش:

[*] - سننأى عن استعمال مصطلح الشرق . في كل هذه الدراسة . لأنه مصطلح غير برئ بالمرة ، فهو نتاج مخابر الاستشراق والأنثروبولوجيا الغربية، واستعماله العرضي قد يفضي إلى عدم البصر بالفخاخ الفكرية والإيديولوجية التي يستبطنها بوصفه مصطلحا استدماريا يقوم على اختزال كل من الوجود العربي بكل زخمه الحضاري، والفضاء الإسلامي بكل امتداده الجغرافي وعمقه التاريخي وثقله الإيديولوجي و حضوره الفكري وغناه الفني ضمن حيز مبتدع و متخيل عديم الشكل والهوية واللون.

[1] - إدوارد سعيد ، **المثقف والسلطة** ، تر: محمد عناني ، رؤية للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ط1 ، 2006 ، ص 19 . وتجدر الإشارة هنا إلى صعوبة التعامل مع بعض مؤلفات إدوارد سعيد المعربة بسبب تعدد ترجماتها مع اختلاف عناوينها ،فكل معرب أو دار نشر يختار عنوانا مختلفا للنص المعرب مع أن الأصل واحد . وربما كان الدافع التجاري أكبر سبب وراء هذا العبث بعناوين إدوراد سعيد؛ فالعنوان الأصلي لكتابنا هو representations of intellectual بما يقابل في العربية : " تمثيلات المثقف " ، لكنه صدر في ترجمة حسام الدين خضور بعنوان :" الآلهة التي تفشل دائما ، وقد تبين أنه عنوان لأحد الفصول الداخلية في الكتاب. كما نقله إلى العربية حسام الدين غصن تحت عنوان :" صور المثقف " وهو أقرب العناوين إلى النص الأصلي . وقد آثرت ترجمة محمد عناني الحالية : " المثقف والسلطة " برغم مجافاة العنوان المقترح لنص العنوان الأصلي؛ لكنني وجدته أقرب إلى تمثل معاني النص الأصلي وروحه ، فضلا عن خبرته وفطنته وبصره بفخاخ الترجمة وعيوبها ومآزقها.

[2] - نجيب الحصادي، **جدلية الأنا والآخر**، الدار الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط 1 ، 1996 ، ص ص 56 ، 58 .

[3] . كل المواد التاريخية المعروضة هنا مأخوذة حصرا من سيرة إدوارد سعيد : **خارج المكان** ، ترجمة فواز الطرابلسي، دار الآداب ، بيروت، لبنان، ط 1 ، 2000 . والجدير بالذكر أن كاتب السيرة قد خص الترجمة العربية لمذكراته بمقدمة من إنشائه.

[4] . نجيب الحصادي، **جدلية الأنا والآخر**، الدار الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط 1 ، 1996 ، ص 90 .

[5] - إدوارد سعيد، **خارج المكان** ، ترجمة فواز الطرابلسي، دار الآداب ، بيروت، لبنان، ط 1 ، 2000 ، ص ، 25 .

[6] - فيليب لابورت . تولرا و جان . بيار فارنييه، **إثنولوجيا أنتروبولوجيا** ، ترجمة مصباح الصمد ،المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، ط 1 ،2004 ، ص : 273 .

[7] - إدوارد سعيد، **خارج المكان** ، ترجمة فواز الطرابلسي، دار الآداب ، بيروت، لبنان، ط 1 ، 2000 ، ص ، ص: 25 ، 26 .

[8] - جويل كاندو، **الذاكرة والهوية** ، ترجمة وجيه أسعد، الهيئة العامة السورية للكتاب ، دمشق ، 2009 ، ص ، ص : 83 ، 84

[9] - **خارج المكان** ، ص : 25 .

[10] - **خارج المكان** ، ص : 26 .

[11] - **خارج المكان** ، ص : 9

[12] - **خارج المكان** ، ص ، ص : 27 ، 28.

[13] - تودوروف و آخرون ، المرجع والدلالة في الفكر اللساني الحديث ، ترجمة وتعليق عبد القادر قنيني ، أفريقيا الشرق ، الدار البيضاء، 2000 ، ص ، ص : 70 ، 73 .

[14] - **خارج المكان** ، ص : 22 .

[15] - بيل أشكروفت وآخرون، **الرد بالكتابة النظرية والتطبيق في آداب المستعمرات القديمة** ، ترجمة شهرت العالم ، المنظمة العربية للترجمة، بيروت ، ط 1 ، 2006 ، ص 29 .

[16] - **خارج المكان** ، ص 231 .

[*] - Gauri Viswanathan من تلاميذ إدوراد سعيد ، أستاذة في العلوم الإنسانية في جامعة كولومبيا . وقد كان لتأثرها بكتابات سعيد في نقده للمنطلقات الماركسية لكتابة التاريخ ، دور في زعزعة التصورات التقليدية ، و إزاحة الاعتبارات اللغوية والشكلية ، في قراءتها لتاريخ الحكم البريطاني للهند في الكتاب المذكور أعلاه.

[17] - فردوس عظيم ، **ما بعد الكولونيالية** ، ترجمة شعبان مكاوي ، ضمن : موسوعة كمبردج في النقد الأدبي ، مج 9 ، تحرير: كريستوفر نوريس وآخرون ، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ، ط 1 ، 2005 ، ص 352 .

[18] - إدوارد سعيد، **السلطة والسياسة والثقافة** ، ترجمة نائلة قلقيلي حجازي ، دار الآداب ، بيروت ، ط 1 ، 2008 ، ص: 260 .

* - كان أبوه قد اكتسب الجنسية الأمريكية ، لأنه عاش في الولايات المتحدة الأمريكية وخدم في الجيش الأمريكي خلال الحرب العالمية الأولى ، على الجبهة الفرنسية.

[19] - **خارج المكان** ، ص : 43 .

[20] - **خارج المكان** ، ص : 45 .

[21] - **خارج المكان** ، ص : 47 .

[22] - **خارج المكان** ، ص 63 .

[23] - بيل أشكروفت وآخرون، **الرد بالكتابة النظرية والتطبيق في آداب المستعمرات القديمة** ، ترجمة شهرت العالم ، المنظمة العربية للترجمة، بيروت ، ط 1 ، 2006 ، ص 27 .

[24] - **خارج المكان** ، ص ، ص: 52 ، 54 .

[25] - **خارج المكان** ، ص 113 .

[26] . إدوارد سعيد ، تأملات حول المنفى 1 ، ترجمة ثائر ديب ، دار الآداب ، بيروت ، ط 2 2007 ، ص 121 .

* . من أبرز قصائد الشعر العربي المعاصر تعبيرا عن حالة النفي والاغتراب ، وفيها يقول الشاعر :

من لا مكان

لا وجه لا تاريخ لي من لا مكان

تحت السماء، وفي عويل الريح أسمعها تناديني:

"تعال" !

ا وجه، لا تاريخ.. أسمعها تناديني: "تعال"!

[27] . إدوارد سعيد ، المرجع السابق ، ص 122 .

[28] . خارج المكان ، ص 43 .

[29] . خارج المكان ، ص 47 .

[*] . تجدر الإشارة إلى أن إدراك سعيد للقاهرة الإسلامية ووعيه بوجودها متأخر عن وعيه بالوجود الكولونيالي البريطاني ، فقد كان الاقتراب من المصريين في طفولته ممنوعا كما سلفت الإشارة من قبل .كما إن إقامة أسرته في الزمالك جعلت من القاهرة العربية الإسلامية غير مرئية ؛ لهذه الأسباب لا نجد لها ذكرا في سيرة سعيد خارج المكان .

[31] . إدوارد سعيد : السلطة والسياسة والثقافة ، ص 142 .

[32] . خارج المكان ، ص 63 .

[33] . خارج المكان ، ص 70 .

[34] . خارج المكان ، ص 66 .

[35] . إدوارد سعيد ، تأملات حول المنفى 1 ، ص 232 .

[*] . على اعتبار أن تجربته داخل إعدادية الجزيرة كانت الأولى .

[36] . خارج المكان , ص 233 .

[37] . ينظر منير العكش : أمريكا والإبادات الثقافية لعنة كنعان الانجليزية ، رياض الريس للكتب والنشر ، بيروت ، ط 1 ، 2009 ، ص 15 .

[38] . خارج المكان ، ص 233 .

[39] . إدوارد سعيد ، تأملات حول المنفى 1 ، ص 233 .

[40] . خارج المكان ، ص 231 .

[41] . ينظر تأملات في المنفى ، ص 233 .

[42] . خارج المكان ، ص 70 .

[43] . خارج المكان ، ص 63 .

[44] . خارج المكان ، صص 72 ، 73.

[45] . خارج المكان ، ص 234 .

[46] . خارج المكان ، ص 233 .